الفصل التاسع :

عملية غسيل الدماغ وأثرها في المجالات الجنائية

- عملية غسيل الدماغ والصحة العقلية .
- أهمية عملية غسيل الدماغ .
- طبيعة عملية غسيل الدماغ .
- القابلية للإيحاء ومجالات استخداماتها .
- القابلية للإيحاء وأثرها على الشخصية وانهيارها .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل التاسع :

عملية غسيل الدماغ وأثرها في المجالات الجنائية

عملية غسيل الدماغ والصحة العقلية :

لقد مورست عملية غسيل الدماغ brainwashing في كوريا ضمن العمليات التي استهدفت تحقيق ما عرف آنذاك "بالتربية العقائدية السياسية" political indoctrination أي غرس عقائد أو مذاهب أو نظريات أو نظم سياسية معينة ، غرسها في أذهان الناس ، وخاصة في أذهان سجناء الحرب أو أسرى الحرب The minds of the prisoners والحقيقة أن الفهم الدقيق لعملية غسيل الدماغ وآثار ها لا يتحقق إلا من خلال النظر والاستبصار أو الفهم Insight لما حدث في عقول هؤلاء الأسرى بعد أن خضعوا لعملية غسيل الدماغ ، كذلك لابد من النظر بعين العطف sympathy لهؤلاء الأسرى بعد مرورهم بتجربة الأسر وعملية غسيل الدماغ ، وذلك نظرًا لما قد تتركه عملية غسيل الدماغ على شخصياتهم وعلى حالتهم الصحية: العقلية والجسمية والنفسية من آثار ، ذلك لأن هذه التجربة قد تترك آثارًا سلبية على صحة الأسير العقلية . ومن هنا لابد من أخذ وجهة نظر الأسرى في الحسبان عند تفسير هذه العملية ، ولا يكفى الاعتماد على وجهات نظر كبار رجال الجيش الأمريكي آنذاك high officials in the. U.S. Army .

لا شك أن "عملية التربية العقائدية" هذه ليست عملية غامضة أو سحرية ، كما قد يتصور البعض ، ولقد تبين أنها نجحت مع بعض الجنود بينما فشلت مع البعض الآخر ، ولذلك يتساءل البعض عن سبب هذا النجاح وعن ذلك الفشل . فلقد نجحت مع الجنود الأمريكان ، وفشلت مع الجنود الإنجليز والأتراك الذين وقعوا في الأسر . ويرجع السبب في

ذلك إلى ما كان عليه الجنود الإنجليز والأتراك قبل الأسر من التمتع بالروح المعنوية العالية ، ومن انخفاض الروح المعنوية لدى الأمريكان في ذلك الوقت poor morale . وكذلك يرجع صمود الجنود وعدم تأثرهم بأساليب الحرب النفسية التي تعرضوا لها في الحرب الكورية إلى دقة النظام والتدريب والتعليم the better discipline فالأثر الذي تتركه عملية غسيل الدماغ يتوقف على مقدار سلامة الصحة العقلية للجندي قبل أسره بما في ذلك ارتفاع روحه المعنوية وسلامة تدريبه وإعداده ، وشعوره القوى بالثقة بالنفس وثقته في جيشه وفي قيادته واعتقاده في صحة القضية التي يحارب من أجلها.

بعد التجربة مع الأسر في الحرب الكورية وضع إدوارد هنتر Edward Hunter هذا المصطلح وهو "غسيل الدماغ" ليحل محل عملية التربية العقائدية . والحقيقة أن للتدريب الجيد وارتفاع الروح المعنوية وشعور الجنود بالثقة في النفس ورسوخ إيمانهم بقضايا وطنهم ، قدرة في حمايتهم من الآثار السلبية لعملية غسيل الدماغ إذا ما تعرضوا لها.

ولقد كان الناس قديمًا يعتقدون أن هناك أشياء مخيفة ومرعبة ومفزعة frightening تحدث في أثناء عملية غسيل الدماغ . ويلاحظ أن التربية العقائدية هذه لم تكن تطبق فقط على أسرى الحروب ، وإنما أيضًا على المدنيين في الصين وروسيا ، ويرجع هذا النشاط العقائدي إلى أوائل الثلاثينات من القرن العشرين . وكان الناس يخافون من التعرض لهذه العملية وذهبت الشائعات rumours لتجعل منها أسطورة غامضة تتحدث عن ظهور جهاز شرقى أو اختراع شرقي غريب أو عجيب mysterious oriental divice والبعض عزاها إلى الاستخدام القسري أو الإجباري أو القهري لنتائج الأبحاث التي أجراها إيفان باتروفتش بافلوف Pavlov's findings (Ivan Petrovich Pavlov 1936 – 1948) [1] تلك التي أجراها على عملية الهضم وإسالة اللعاب عند الكلاب باستخدام مثيرات صناعية أو شرطية مثل دقات الجرس لجلب استجابة الكلب بإسالة اللعاب ، تلك الاستجابة التي تحدث في الظروف الطبيعية عند رؤية الطلب للطعام أو عند شم رائحته.ولقد فسر بافلوف حدوث التعلم بإرجاعه إلى مبدأ التعزيز الإيجابي أو السلبي أي تقديم المكافآت أو فرض العقاب ، والبعض

(1) الحفني، عبد المنعم، (1993) موسوعة أعلام علم النفس، ص 47، مكتبة مدبولي، القاهرة.

الآخر أنكر وجود عملية غسيل الدماغ كلية وعزاها إلى ادعاءات بعض مراسلي وكالات الأنباء الأمريكان.

وهناك من يدعى أن هذا المصطلح عديم المعنى والدلالة من الناحية السيكولوچية والفيزلوچية the term is psychologically and physilolgicallymeaningless .

ولكن الحقيقة خلافًا لهذا أنها عملية حقيقية تستهدف التغيير القسري أو التعديل الإجبارى لآراء الفرد ومعتقداته ومذاهبه السياسية أو الدينية وأفكاره ومشاعره ، وبالتالي تعديل سلوكه ، بحيث يتمشى مع مذاهب سلطات الأسر أو هيئات التحقيق البوليسية ، وغاية الأمر أن المصطلح هو مصطلح استعاري ، بمعنى أنه لا يوجد واقعيًا عملية غسيل أو شطف أو تنظيف أو تطهير بالمعنى الحرفي لهذا ، أو استخدام أدوات الغسيل كالصابون ونحوه . وإنما عملية غسيل المخ ظاهرة حقيقية وواقعية وتمارس منذ أقدم العصور لتعديل اتجاهات الناس السياسية لتتمشى مع اتجاهات السلطة الحاكمة ومن ذلك تعديل اتجاهات الناس من المذهب الرأسمالي إلى المذهب الشيوعي أو الاشتراكي أو العكس أو العودة إلى الرأسمالية وكانت ألمانيا النازية تغرس الفكر النازي في عقول الشباب ، ذلك لأن الحاكم يرغب أن يعتنق أبناء مجتمعه نفس معتقداته حتى يسهل عليه قيادتهم . وبذلك يتضح أن عملية غسيل الدماغ هذه أو التربية القسرية لها مستويات مختلفة من البسيط إلى المكثف ، كما تختلف المجالات التي تطبق فيها من ذلك السجون والإصلاحيات وسجون أسرى الحرب وفي الأحزاب السياسية والمنظمات السرية والعلنية التي تسعى لغسل أدمغة أعضائها لإقناعهم ولو قسريًا بمبادئ المنظمة وأهدافها . فالأحزاب العمالية أو المحافظين أو الاشتراكيين أو الجمهوريين أو الديمقراطيين وغيرها تغرس فيها مبادئها في أذهان أعضائها.

ولقد كان البوليس السري يستخدمها منذ زمن بعيد secret police قبل الثورة البلشفية في روسيا والتي أطاحت بالقيصرية في العام (1917) the revolution.

وفي عام 1956 عقدت جماعة تقدم الطب العقلي الأمريكي مؤتمرًا the American Group for the advancement of psychiatry وفي هذا المؤتمر قرر الدكتور هنكل Dr. L.E Hinkle أن هذا المنهج مستمد من المناهج القديمة التي استخدمها البوليس السري ، وأن المناهج المستخدمة في روسيا كانت مناهج بوليسية ، وأن هذه المناهج لم تكن تعتمد على

تعاطى العقاقير أو على استخدام التنويم المغناطيسي أو على أي منهج آخر ابتكره العلماء . فلم يشترك أي من العلماء في هذه الإجراءات على اعتبار أن هذا المنهج يقدم أساسًا يصلح لعقد جلسات محاكمة المجرمين بعد إجراء التحقيقات معهم واستجوابهم . أما في الصين فلقد كان لهذا المنهج هدفًا آخر هو إحداث تغيرات طويلة الأمد أو مستديمة في الاتجاهات الأساسية للسجين ولسلوكه . بمعنى تخطى أهداف التحقيق ذاتها أو الحصول على اعتراف المتهم سواء أكان اعترافًا حقيقيًا أو كان اعترافًا كاذبًا لجأ إليه المتهم كي يخلص نفسه من عذاب التحقيق ، وإنما كان الهدف طويل الأمد وهو إحداث تغيرات مستديمة في الاتجاهات العقلية الأساسية لدى السجين كأن يتم تحويله من الفكر الرأسمالي إلى الفكر الشيوعي ، وكان ذلك يتم في إطار ما كان يعرف بالحرب الباردة . ويتضح من ذلك أن هذه العملية تستهدف تغيير كل من:

الاتجاهات العقلية + **السلوك** + **تغيرات وقتية** + **تغيرات طويلة الأمد أو مستديمة**

يضاف إلى ذلك تغيير في العواطف والانفعالات والمشاعر والميول والاهتمامات . أي التغير العقلي والوجداني والسلوكي أو المعرفي.

ولقد كان يطلق على البرنامج الصيني الاشتراكي مصطلح "الإصلاح الأيدولوچي أو العقائدي" ideological reform, or the ideological remoulding or thought reform أو الإصلاح الفكري ، وكان هذا الإصلاح الفكري تتم دراسته ضمن موضوعات الطب العقلي.

ولكن هذه البرامج لم تكن جديدة ، فلقد عرف تاريخ البشرية حالات من فرض العقائد أو المعتقدات الجامدة بالقوة imposed dogmas وتم فرض أفكار دون السماح لمناقشتها أو طرح التساؤلات حولها ومن ذلك حركات التحول الجماهيري Mass conversion movements وربما العولمة الثقافية والغزو الثقافي الآن يسعى لتحقيق نفسي الأهداف وهى طمس الثقافات المحلية وتذويبها وفرض ثقافة القوى الكبرى القاهرة.

Perception:

1) Collectively, those processes that give coherence and unity to sensory input . This is the most general sense of the term and covers the entire sequence of events from the presentation of a physical stimulus to the phenomenological

experiencing of it . Included here are physical, psychsiological, neurological sensory, cognitive and affective components . Because this manner of use of the term is so broad, it should be seen as encompassing many of the more specialized and restrictive senses that follow .

2) The awareness of an organic process . This meaning is designed to focus on perception as a conscious event, the actual experiencing of a chain of (organic) processes initiated by some external orinteranl stimulus .
3) A . Synthesis or fusion of the elements of sensation . This usage is found in the approach of structuralism .
4) An intervening variable, a hypothetical internal event that results directly from stimulation of sensory receptors and is affectedby drive level and habit . This meaning, of course, is that expressed within behaviorism .
5) An awareness of the truth of something . This sense is largely nontechnical and connotes a kind of implicit, intuitive insight .
6) A Label for the field of psychology that studies any or all of the processes entailed in the above meanings[1].

ولكن الصينيين قد أضافوا إلى هذه المناهج القديمة منهجًا أكثر تنظيمًا وأكثر دقة وأكثر شمولاً وأكثر عمدية أو الاعتماد على الأساليب العمدية ، وأكثر شمولية لتغير الأخلاقيات والاتجاهات ، وكذلك استخدام مناهج أكثر حيوية وأكثر انفرادًا أو تفردًا وأكثر عبقرية من الناحية السيكولوجية ولعل التغيير في حد ذاته ليس شرًا إذا كان يسير نحو الإصلاح والتقدم والنهضة والنمو والرخاء وبسط العدالة والإخاء العالمي.

هذا لا يعنى إطلاقًا أن مضمون الدعوة كان صائبًا أو مقبولاً أم لا . كما أن شرح هذا المنهج في غسيل الدماغ وتغيير اتجاهات الناس لا يعنى تغييرها من الرأسمالية إلى الشيوعية أو العكس ، وإنما القصد هو شرح المنهج في حد ذاته فقط ، ولكل عهد فلسفته التي تصلح له دون سواه من العهود.، ومهما كان التغير مطلوبًا فإنه لا ينبغي أن ينال من الثوابت الثقافية أو مبادئ الدين الإسلامي أو القيم العربية الأصيلة.

(1) Reber, A.S., (1995), Penguin Dictionary of psychology, Penguin Books, London, p. 549

لقد كان الحديث عن إعلان هذا المنهج مبالغًا فيه ، وخاصة بالنسبة للرجل العادي ، حيث كان يعتقد أن قوى شريرة تتملكه عند الخضوع لهذه العملية .

ولقد شاع استخدام عمليات غسيل الدماغ في مجالات متعددة وبمستويات مختلفة أيضًا من جانب الشركات والمؤسسات والمنظمات الكبرى وأجهزة الإعلام والثقافة الجماهيرية،وفي كثير من المدارس والجامعات والمعاهد . هذه العملية تخل بالإدراك الحسي perception لمن يخضع لها حتى وإن كان ذلك من جانب الصحف والمجلات ، حيث تثير الشعور بالخوف أو بالاضطهاد في نفوس الضحايا . المجتمع يتعرض دائمًا لمثل هذه العمليات في تعديل الاتجاهات والسلوك دون أن يدرى ذلك ، ولا يعرف أنه وقع في أيدي أجهزة شريرة من كتاب الإعلانات إلى رؤساء كبرى الشركات والمعلمين في المدارس الابتدائية والثانوية.

الإعلانات ترغم الناس على عمل اختيارات قهرية دون أن يعلموا ذلك . المجتمع يتم خداعه ، ولكن من المؤسف أنها تستغرق وقتًا طويلاً منه حتى يدرك ذلك أو حتى يدرك أنه قد تم خداعه.

المؤسسات والمنظمات تسعى ، منذ القدم ، لتغيير اتجاهات الناس دون أن يدرى هؤلاء الناس . وإلا ما هي فائدة الإعلانات المكثفة والمستمرة والملحة التي تسقط على حواس الناس حتى المدرسة الثانوية كانت تطبع عقول أبنائها بطابع معين ترغب فيه السلطات المشرفة على التعليم . المدارس تغرس كثيرًا من القيم والمبادئ والاتجاهات والأفكار في أذهان طلابها . والمدرسة تفعل ذلك بنوايا مخلصة في قصدها واستهدافها خير النظام وخير المجتمع في الوقت الذي تقوم فيه بغرس هذه القيم في حين قد تعمد المدرسة إلى إزالة تلك القيم التي تعتبرها قيمًا بالية أو فاسدة أو بائدة.

وهذه البرامج التي تستهدف الإصلاح الأيدولوچي لا توجه فقط نحو الغرب ، ولكن توجه أيضًا نحو الداخل في المجتمعات التي كانت تتبنى الفلسفة الاشتراكية . وتطبق هذه المناهج ليست فقط في المدارس ، ولكن أيضًا في الجامعات والمعاهد العليا ، وفي المنظمات الثورية وفي السجون وفي المؤسسات الحكومية ومنظمات العمل والإنتاج وفي مكاتب العمل وفي منظمات الفلاحين ، وفي المكاتب الحكومية ، ويدخل في ذلك النقابات والاتحادات العمالية والمهنية والأندية والجمعيات الخاصة في التي تطبع عقول أعضائها بطابع خاص

وتزودهم بمجموعة من القيم والمبادئ والأهداف التي تسعى لتحقيقها المؤسسة[1] .

Conformity : الامتثال

Generally, the tendency to allow one's opinions, attitudes, actions and even perceptions to be affected by prevailing opinions, attitudes, actions and perceptions . More specifically, it is important to appreciate that there are at teast three distinct patterns of use of this term:

(a) behavioral, when it refers to the tendency to go along with the group, to attempt to act in ways consistent with the majority's.

(B) attitudinal when the reference is to a change in attitude or belief, as a result of pressure from others, that may or may not result in behavioral change and.

(C) as a personality trait, when it implies an underlying characteristic of an individual's personality manifested as being subject to either of the two above tendencies to conform . [2]

وهنا تستخدم هذه المؤسسات الضغط النفسي والاجتماعي ، وكذلك الحض أو النصح أو التوجيه exhortation والنداءات الأخلاقية ، ويتمشى ذلك مع الأساليب الرسمية وغير الرسمية التي تستهدف تحقيق الامتثال أو الطاعة أو قبول الآراء والأفكار conformity وخاصة في المدارس والكليات والمعاهد العسكرية أو التابعة للجيش أو في المدارس العامة أو الثانوية.

ومن شأن نجاح عملية الامتثال أن تتشابه اتجاهات الناس وعقائدهم وسماتهم وميولهم وأفكارهم ، ويساعد ذلك على توحيد المجتمع . وتؤدى الطاعة إلى عدم خروج الفرد على نظام المجتمع أو على القانون . وقد تساعد الطاعة والامتثال في تحقيق تكيف الفرد مع مجتمعه أي تكيفه الاجتماعي وقبوله عضوًا نافعًا في المجتمع social adjustment .

أما استخدام القهر والقسر والتعذيب والإجبار والإكراه coercion فيتم في السجون وفي المؤسسات العسكرية أو ضمن البرامج العسكرية military programmers[3] ، وقد يصل الأمر إلى حد انهيار الضحية أثناء ممارسة هذه العمليات.

---

(1) Brown, J.A.C., (1963) Techniques of persuasion, Pelican Books, P. 269.

(2) Reber, A.S., (1995), penguin Dictionary of psychology, Penguin Books, London, p. 152

(3) Brown, J.A.C., (1963) Techniques of persuasion, Pelican Books, p. 269.

وهناك وسائل رسمية كالتربية النظامية يستخدم فيها نوع من الإقناع والتعذيب وقد يحدث لدرجة الانهيار والإجبار والإكراه والقسر coercion أو تلك الأساليب الموجهة ضد ما كان يطلق عليه الشيوعيون اصطلاح الرجعيين إشارة إلى أرباب الرأسمالية الغربية reactionaries . ولم يكن معروفًا أين يبدأ الإكراه وأين ينتهي النصح exhortation .

كانت العملية تتراوح ما بين النصح ⇐ الإجبار وذلك في علمية الإصلاح الفكري thought reform وكذلك في عملية إعادة التعليم re-education وقد يؤدى ذلك إلى حضور الجلسات والنقاش الجماعي ، وكذلك اللقاءات أو الاجتماعات غير الرسمية لتدريب الناس على القيام بصورة أفضل بالخدمات المطلوبة منهم ، وخاصة الجماعات المغتربة في البلاد التي يهاجرون إليها.

ولقد تبين أن الصينيين قد استمدوا أعظم مشاعر السعادة والرضا ليس فقط من الشعور بالقيمة أو الأهمية الشخصية ، ولكن من الاشتراك في أنشطة لها أهداف تتجاوز أهداف الفرد أو الأهداف الفردية ، بمعنى أنها أهداف اجتماعية أو أهداف يسعى مجتمعهم لتحقيقها أو هي أهداف وطنية.

وقد يتأتى ذلك من خلال تدريس مواد التربية الوطنية والتاريخ الوطني ودراسة سير العظماء والمشاهير في مجتمع ما مما ينمى مشاعر الفخر والاعتزاز بالأمجاد السابقة ، ولقد نجحت الحكومة الصينية في إعطاء كل مواطن فكرة أن عمله أو جهده يناسب موقع ما من مواقع المجتمع ، أي الشعور بأن له دورًا ، وأن لهذا الدور ، مهما كان صغيرًا ، أهمية كبيرة ، الكل يشعر أنه يسهم في النشاط المطلوب للدولة ، كل فرد يشعر أن له دورًا في مسرح العمل في المجتمع ، وذلك من وجهة نظر حكومته أي الشعور بالقيمة أو الأهمية وبالمشاركة participation والمشاركة الشعبية من الأساليب الناجحة في تطور المجتمعات.

ولعل شعور كل فرد من أفراد المجتمع بأن له دورًا وأن له أهمية في تحقيق أهداف المجتمع وفي حل مشاكل المجتمع ، هذه الفكرة من صميم الفكر الديمقراطي الحديث.

وبالنسبة للمجرمين كان هناك وسائل إصلاحية عن طريق فصول دراسية ، ومن ذلك استخدام المقابلات الشخصية الفردية معهم ، ومن ذلك دراسة وثائق معينة ومناقشتها في هذه الاجتماعات ، وكذلك تطبيق المناقشات المنظمة ، وذلك من أجل إعادة تعليمهم بعد

اعترافهم بالذنب الذي اقترفوه ، والرغبة في طاعة القانون واحترامه obedience to the law ومناقشة الأحداث السياسية الجارية وتفسيرها وكذلك مناقشة إنتاج العمال ودراسة بعض جوانب الثقافة والكشف عن طبيعة الجرائم التي تم ارتكابها the crimes committed ، وبكل دقة تستهدف هذه الجهود محو أو إزالة الفكر الإجرامي أو الأفكار الإجرامية من أذهان هؤلاء المجرمين wipe out criminal thoughts كما يحدث الآن في جلسات العلاج النفسي الجماعي أو الإرشاد النفسي الجماعي ، ونشر أو تدعيم قانون أخلاقي جديد anew moral code فلقد كان هناك خلفية تاريخية لعملية الإصلاح الأيديولوچي أو إعادة صياغة الأيديولوجية ideological remoulding عملية تكوين اتجاهات إيجابية وتعديل الاتجاهات القائمة عملية ما زالت مستمرة ومطلوبة لتحقيق التعاون بين أفراد المجتمع والسلطات الحاكمة وبين أفراد المجتمع فيما بينهم وكذلك لتنمية مشاعر الوحدة والاتحاد والتضامن والتكافل والتجانس بين أبناء المجتمع ومن ذلك تدعيم فلسفة السلم والسلام أو الدعوة للاقتصاد الحر أو دعوة الشباب للأعمال الحرة أو إقناعهم بالعمل في الأعمال والحرف اليدوية والدعوة لمشاعر المواطنة وحب الوطن والدفاع عنه والإسهام في نفعه وخيره.

قائمة المراجع :

1) الحفني ، عبد المنعم ، (1993) ، موسوعة أعلام علم النفس ، مكتبة مدبولي ، القاهرة.

2) Brown, J.A.C., Techniques of persuasion, Pelican Books, London.

3) Reber, A.S., (1995) Penguin dictionary of psychology, Penguin Books, London .

obeikandl.com

عملية غسيل الدماغ Brainwashing

أهمية عملية غسيل الدماغ :

لعملية غسيل الدماغ مستويات متعددة من البسيط إلى الشديد القاسي الذي يؤثر في شخصية من يتعرض لها وفي صحته النفسية واتزانه الانفعالي لدرجة إصابة شخصيته بالتفكك والانهيار والتشويش والخلط . ولكن هذا الأثر السلبي البالغ يتوقف على شدة العمليات التي يتعرض لها من ناحية ، وعلى مبلغ سلامة شخصيته وقوتها واتزانها قبل الوقوع في الأسر ، وكذلك على مقدار إيمانه بقضيته الوطنية وإخلاصه لها وبعدالتها.

وهناك مستويات خفيفة من هذه العملية كانت ومازالت تمارس . فلقد عرفت الصين منهجًا شبيهًا بعمليات غسيل الدماغ أطلقت عليه عملية التربية الأيديولوجية أو التربية الفكرية أو التنشئة العقائدية بقصد غرس القيم الشيوعية في أذهان الشباب . وفعلت ألمانيا النازية مثل هذا في بث الفكر النازي في عقول الشباب وتوكيد سمو الجنس الألماني في أذهانهم ومن ثم حق الألمان في سيادة العالم.

والدول الاشتراكية كانت تملأ مناهجها الدراسية بما يغذى الفكر الاشتراكي ويربى التلاميذ على السلوك الاشتراكي . وأجهزة الإعلام تروج للمشروعات والحركات والأفكار والمذاهب الجديد كالخصخصة أو اقتصاد السوق الحرة أو فلسفة السلم والسلام أو الإيمان بجدوى تحديد النسل والقيام بمشروعات التنمية المستدامة أو الانفتاح على الغرب والشرق.كل دولة تسعى لغرس أفكارها ومشاريعها في عقول الناس . وعلى ذلك ، فلهذه العملية دور في حالات السلم والحرب ، في مجالات إيجابية أو سلبية ، كما أنها تطبق على الأعداء وعلى الأصدقاء أيضًا في الداخل وفي الخارج.

تعريف عملية غسيل الدماغ Brainwashing :

غسل الدماغ brainwashing كما يقول أ.د/ فرج عبد القادر طه وزملاؤه الأجلاء ، هو استخدام مجازى يشير إلى تعريض الفرد لضغوط نفسية وعصبية وجسمية ومعنوية ودعائية ، بهدف تغيير معتقداته وأفكاره وتحويله عن موقفه أو إفشائه لما يخفيه من أسرار ، أو كسبه لاتجاه معين ، أو تحميسه لعقيدة معينة . ويشير المعنى في هذا المصطلح إلى "تنظيف" المخ مما

علق به من أفكار واتجاهات "رديئة" وغرس أفكار واتجاهات أخرى "نظيفة" . وتستخدم لغسل الدماغ أساليب متعددة من الضغوط المادية ، كالتعذيب والحرمان من الغذاء والشراب ومن النوم والراحة ، وأيضًا استخدام كثير من الضغوط المعنوية كالدعاية وإطلاق الشائعات والنكات والتهديد والتخويف.

ويمارس غسيل الدماغ مع الجواسيس والمعتقلين أو المسجونين السياسيين ، وأسرى الحرب والخصوم المذهبيين ، ولتحويل الشعوب من رأى إلى اتجاه آخر . (طه ، فرج عبد القادر وآخرون ، 1993: ص 570).

وتستخدمه بعض الجماعات السرية أو العلنية . ويلاحظ أن اصطلاح استعاري ، حيث لا يوجد عملية غسيل بمعناها المادي ، وفي هذه العملية يتم تحويل معتقدات الفرد بصورة راديكالية متطرفة . وهو عبارة عن صيغة شديدة الحدة من تلقين الدعاية في ظل ظروف يجرى تعريض المرء خلالها لأوضاع وحالات مجهدة للغاية ، بحيث يتقبل الآراء أو يتبنى المواقف الجاهزة تحت وطأة الإنهاك والإجهاد بدلاً من قبولها عن طريق الإقناع الواعي ، في ظل أحوال عادية وطبيعية . يتعرض لهذه العملية أسرى الحرب أحيانًا في معسكرات الاعتقال . (رزوق ، أسعد ، 1977: ص 230).

وهو بذلك يختلف عن عملية الإقناع التي تستند إلى حقائق ووقائع واستعمال المنطق السليم في الإقناع . وفي أثناء هذه العملية يتعرض الأسير مثلاً لضغوط ومؤثرات من طرف واحد ، بحيث يقلع عن آرائه السابقة ويعتنق غيرها.

وينظر إليه البعض على أنه عبارة عن حمل الناس على تغيير مواقفهم وسلوكهم (عاقل ، فاخر ، 1985: ص 22).

والحقيقة أنه لا يغير السلوك أو الموقف وحسب ، وإنما يغير أيضًا الأفكار والآراء ، والمذاهب والمعتقدات والقضايا التي يؤمن بها الفرد . كقيام العدو بزعزعة إيمان الجنود بعدالة قضيتهم ، باستخدام الإلحاح والتكرار والمثابرة في تغيير اتجاهات الناس.

وهو عبارة عن تغيير اتجاهات المرء السياسية عادة ، والاصطلاح مأخوذ عن كلمتين صينيتين تعنيان "غسيل الدماغ" ، ويتضمن ذلك استخدام وسائل الإكراه البدنية والنفسية ، كالسيطرة المطلقة على الفرد ، أو المجموعة ، وإخضاعه للنظام الصارم وبقائه لفترة مسجونًا

دون إخطاره بأسباب القبض عليه ، وعزله تمامًا ، وتعذيبه نفسيًا وبدنيًا ، واستمرار استجوابه لفترات قد تصل إلى 16 ساعة يوميًا ، وتناوب الحراس عليه،وإنقاص وجباته ووزنه ، وإجهاده وإذلاله واتهامه باستمرار فيتعلق المسجون بمستجوبه لتلطفه معه دون بقية المسجونين ، وينهار فكريًا أمام الإجهاد والتعب ، ويتقبل الإيحاء بأنه مذنب ويتحلل أناه ويتشكل سلوكه ، ويتدعم لديه السلوك الذي يجب عليه الرضا ، ويستبعد من عنده السلوك الذي يجر عليه السخط ، ويلين أمام تناوب الخوف والأمل . ويتكلف غسيل المخ أموالاً طائلة ووقتًا باهظًا وعددًا كبيرًا من المختصين في علم النفس . (الحفني ، عبد المنعم ، 1994: ص 112).

فوسائل الإكراه بدنية ونفسية

بدنية — كالضرب والحرق والإيذاء وخلع الأظافر والكي بالنار

نفسية — كالإهانة والتحقير والإساءة

وتؤثر فيه حالة الإجهاد والتعب والإرهاق والحرمان من النوم ، ومن الإدراك الحسي ، حيث تعصب عينيه في بعض الأحيان.

ولكي ينهار نفسيًا يتعرض لحالة من التذبذب الشديد بين الشدة والقسوة المفرطة عليه ثم العودة إلى اللين والتلطف معه والاعتذار إليه،ولذلك ينهار . ويتأثر تأثيرًا كبيرًا بالإيحاء فيقبل التهم التي توجهها إليه سلطات الأسر أو السجن أو الاعتقال ، ويحدث لديه خلط فلا يستطيع التمييز بين اعترافاته الحقيقية وتلك التي يميلها عليه آسره . وتضعفه ثقته بنفسه ، وتنهار قوى الدفاع عنده . ويسلك السلوك الذي يجلب عليه رضاء سلطات الأسر.

طبيعة عملية غسيل الدماغ:

وفي هذه العميلة – كما يقول أ.د/ كمال الدسوقي ، ينتقل الفرد أو يرتحل عنوة من سلوك سابق إلى سلوك آخر أو معتقد آخر تفرضه عليه سلطات الأسر ، كأن يتحول الأسير من الفكر الرأسمالي إلى الفكر الشيوعي . ويعتمد على حرمان الأسير من المثيرات الحسية ، إلا ما ترغب في إسقاطها عليه سلطات الأسر ، وبذلك يتقبل المؤثرات من طرف واحد (دسوقي ، كمال ، 1994: ص 197).

وفيها يتم حمل الأسرى أو السجناء أو حتى الناس العاديين على تغيير مواقفهم أي اتجاهاتهم وعقائدهم وميولهم ومشاعرهم وسلوكهم وتوجيهها وجهه مغايرة ، حسبما يرغب في ذلك الهيئة أو الأشخاص الذين قاموا بالأسر ، وذلك باستخدام أشكال مختلفة من الضغوط البدنية والسيكولوجية والإيحاء بحيث يقبلون ما يملى عليهم.

ولقد كان هذا المنهج يستخدم بكثرة في المجتمعات الدكتاتورية أو الشمولية أو التسلطية ، لإرغام أبناء المجتمع على تقبل فلسفة الحاكم أو مذهبه أو آرائه ، كما كان يحدث في ظل الأنظمة الشيوعية أو الاشتراكية ، ولغرس الولاء للنظام.

وقد تتبع هذه الجهات أساليب مختلفة ، منها المناقشات الجماعية ، والحوار ، والمحاضرات واللقاءات والدروس والاستجوابات والقرارات والنشرات والكتيبات وما إلى ذلك . (بدوى ، أحمد زكى ، 1986: ص 46).

ولا تخلو أن تكون العملية عبارة عن إقناع بالإكراه أو القهر أو القسر coercive persuasion كما تستخدم بعض أجهزة الشرطة في انتزاع الاعتراف من المتهمين عنوة وبالإكراه والتعذيب أو التهديد بذلك ، وفيها تحدث محاولات منتظمة لتعديل أو تغير ما يلي:

1) أفكار الإنسان. 2) اتجاهاته.

3) معتقداته. 4) سلوكه الفعلي.

وبالطبع قد يرتبط سلوك الفرد مع معتقداته ، وقد لا يرتبطان . ولقد كان الصينيون يستخدمونه مع سجناء الحرب ، وقد تستمر الآثار الناجمة عن هذه العملية لفترات طويلة ، وقد تزول بعد زوال المؤثر أو الإفلات من الأسر.

القابلية للإيحاء :

وهنا ، كما يقول أ.د/ أحمد عزت راجح ، يصبح الفرد مطاوعًا سهل التشكيل ، شديد القابلية للإيحاء . ويستغل المعذبون هذا كله فيعاقبونه إن امتنع عن التعاون معهم ، أو عن الاعتراف ، ويكافئونه إن فعل.

وتختلف استجابة الناس لهذه العملية ، فمنهم من ينهار انهيارًا تامًا ويصاب بالجنون ، ومنهم من يحاول الانتحار عبثًا ، ومنهم من ينكص على عقبيه ، ويصبح كالطفل في تفكيره ، وسرعة تصديقه ، ومنهم من يسلم ويقتنع . (راجح ، أحمد عزت ، 1994: ص 552)

أثرها على الشخصية :

والحقيقة أن مقدار ما يلحق بشخصية الأسير يتوقف على سلامة هذه الشخصية قبل الوقوع في الأسر وسلامتها وقوتها وصلابتها حيث تقاوم التغيير القهري هذا . فليس من الضروري أن يخرج جميع من يخضعون لعمليات غسيل الدماغ أن يخرجوا مرضى من هذه العملية (Reber, A. S., 1995: p . 104) .

كذلك يتوقف إقلاع الفرد عن معتقداته على مدى رسوخها في ذهنه وقوتها ، فإذا كانت ضعيفة كان تغييره من النقيض للنقيض أمرًا سهلاً . أما الأشخاص شديدو الإيمان بالقضايا الوطنية ، وحب الوطن وسلامته ، فإنهم يقاومون التغيير . في هذه العملية يتعرض الإنسان لمؤثرات لا يرغب فيها ولا يوافق عليها.

مجالات استخدامها :

ويستخدم غسيل الدماغ مع أعضاء الحركات الاجتماعية أو المنظمات الاجتماعية أو الأحزاب السياسية كما فعل هتلر مع الشباب النازي في ألمانيا ، وعلى ذلك يمكن أن تستخدم هذه العملية مع فرد واحد أو مع مجموعة من الأفراد ، كما يحدث في وسط الجماعات العرقية أو السلالية التي تربى أعضائها على التعصب ضد أبناء العرقيات الأخرى . وتعمل وسائل الاتصال الجماهيري هذا العمل باستخدام اللقاءات أو الاجتماعات الجماعية أو ارتداء الملابس أو الشارات الخاصة أو رفع النداءات أو القيام بعمل المظاهرات والمهرجانات والحشود المختلفة ووضع الملصقات واللوحات والقبعات الخاصة وأساليب التحية المحددة وغير ذلك من أساليب التعليم الشرطي ، وتقديم النماذج والتعزيزات للسلوك المرغوب فيه من جهة السلطة المسئولة ، بقصد الامتثال والطاعة للآراء الجديدة وغير ذلك من الطقوس اليومية ، والمظاهرات ونشاطات جماعات حقوق الإنسان والمسيرات الجماعية للاحتجاج أو التأييد لفكرة ما مثل منع وقوع الحرب على العراق.وفي هذه العملية يتعرض الفرد أو الأفراد لتأثيرات درامية كبيرة جدًا.

أثرها على الشخصية وانهيارها:

لكل إنسان حد معين لتحمل الإحباط والصدمات لا يلبث أن ينهار بعده مهما بلغ

اتزانه النفسي . ولقد بينت لنا الحروب الحديثة أن أكثر الشخصيات ثباتًا واتزانًا لا تلبث أن يصيبها التفكك والانهيار حيال مواقف الفزع العنيف التي يتحتم إزاءها الصمود ويمتنع الهرب ويعرف هذا الحد بـ (نقطة الانهيار) . على هذا الأساس تقوم عملية "غسل المخ" التي تستهدف قسر الفرد على التخلي عن آرائه واتجاهاته ووجهة نظره ، والأخذ بعقيدة من يتولى غسل مخه . فمن الطرق الشائعة لهذه العملية تعريض الشخص لضروب شتى من الإرهاق الجسمي والنفسي والذهني؛ كالحرمان من النوم ومن الطعام ومن الملبس أو الكي بالنار وامتلاخ الأظافر والصدمات الكهربية والصلب والنفخ وإسماعه أصوات استغاثة ، وكالحبس الانفرادي ، وتوجيه تهم باطلة وتشكيك الفرد في عقيدته ، بل وفي نفسه ، وإشعاره بالذنب من أعمال لم يقم بها قط ، وتعريضه لألوان شتى من الخوف والإذلال والإهانة ، وقسره على الاعتراف بما يراد منه الاعتراف به ، وإرغامه على الاستمرار في المناقشة والدفاع عن نفسه ساعات طوال . وإن التعب والألم والجوع والأرق والإذلال تزيد من وطأة الحبس الانفرادي ، مما يجعل الفرد في حاجة ملحة إلى الكلام مع أي إنسان ، كما تتبلد قواه العقلية وقدرته على التمييز . (راجح ، أحمد عزت ، 1994: ص 255).

استخدامها قديمًا :

وقديمًا كان يطلق على هذه العمليات مصطلحات أخرى مثل : التربية الفكرية أو العقائدية أو التربية الأيديولوجية أو التحكم في الفكر ، وإن كان غسيل المخ له أثر يصعب مقاومته عن هذه الأنماط الصارمة من التربية . وقد يؤدى التأثير في الأسرى إلى حد رفضهم العودة إلى بلادهم بعد أن تسمح لهم سلطات الأسر بذلك ، كما حدث في الحرب الكورية بالنسبة إلى بعض الأسرى الأمريكيين . والحقيقة أن هؤلاء الأسرى العائدين يتعين دراستهم دراسة نفسية متعمقة للتعرف على ما أصابهم من تغيير ، وذلك بغية إعادتهم إلى حالتهم الطبيعية.

وفي الغالب ما تبدأ العملية بطرح طلبات بسيطة من السجين ، ثم تأخذ في الزيادة التدريجية ، فما أن يطيع السجين الفكرة الأولى حتى ينتقل السجان إلى الفكرة الثانية وهكذا . والتحكم في العقل يتم عن طريق التأثير الاجتماعي بواسطة المعلومات أو الكلام أو الرسائل التي توجه للأسير . ويوضع الفرد في موقف لا يقاوم أو لا يستطيع مقاومته أو دفعه بعيدًا عنه .

وتبدأ العملية بطلب أمور بسيطة من السجين ، كأن يكتب عبارات قليلة أو يتحدث قليلاً ، وتدريجيًا تطلب منه سلطة الأسر المزيد حتى يعطى اعترافًا كاملاً ، وحتى ينتقد ذاته ، ويعطى كثيرًا من المعلومات أثناء الاستجوابات . ويطلب من السجين تنفيذ مبدأ الاستمرارية في مشاركته في عملية الاستجواب أو الاعتراف ، فالطلبات منه متلاحقة وغير متناهية والسجان لا يكل ولا يمل . وإذا رفض الأسير فإنه يعاقب ، كأن يكلف بنسخ كمية ما من مادة مكتوبة ، ويشترك السجين في مناقشات جماعية ، وفي كتابة سيرته الذاتية ، وفي نقد ذاته ، ثم الاعتراف العلني أمام أجهزة الإعلام.

لم تستخدم السلطات الصينية مع الأسرى الأمريكان في الحرب الكورية كثيرًا من التهديد بالسحل والتعذيب ، ولكنها استخدمت أكثر من ذلك منهج تقديم المكافآت أو التعزيزات لتقوية شعور السجين بالمسئولية نحو سلوكه (Meyers, D.G., 1983: 57).

طرق التصدي لها منذ الصغر:

ومع أن تحمل الإحباط يتوقف على الوراثة إلى حد كبير ، إلا أنه من الممكن رفع مستواه بتدريب الطفل على احتمال ضروب من الإحباط متدرجة في العنف ، فذلك يعده لاحتمال إحباطات أشد فيما بعد . لذا فمن الخطأ أن يسرف الوالدان والمعلمون في حماية الطفل من مواجهة المواقف المحبطة ، فخبرات الإحباط لازمة لنمو شخصية الطفل وتدعيم صحته النفسية . وذلك أن القدرة على احتمال الشدائد والصعوبات شرط ضروري لا تزانه الانفعالي (راجح ، أحمد عزت ، 1994: ص 552) .

وهكذا يتضح لنا من خلال هذه الرحلة العابرة أن عملية غسيل الدماغ لها مستويات مختلفة من البساطة إلى الشدة ، وأنها تستخدم في الحرب وفي السلم وأن لها أحيانًا أهدافًا إيجابية كإقناع الناس بمذهب معين أو سياسة معينة أو مشروع معين.

المصادر :

1) بدوى ، أحمد زكى ، (1986): معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية ، مكتبة لبنان ، بيروت ، لبنان.

2) الحفنى ، عبد المنعم ، (1994): موسوعة علم النفس ، مكتبة مدبولى ، القاهرة.

3) رزوق ، أسعد ، (1977): موسوعة علم النفس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت.

4) راجح ، أحمد عزت ، (ب ت): أصول علم النفس ، دار المعارف ، الإسكندرية.

5) طه ، فرج عبد القادر وآخرون(1993): موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ، دار سعاد الصباح – الكويت.

6) عاقل ، فاخر ، (1988): معجم العلوم النفسية ، دار الرائد ، لبنان – بيروت.

7) Reber, S., (1995): Penguin Dictionary of psychology, London.

8) Myers, D.G., (1993), Social psychology, Mc Graw-Hill Book Co . New York .

obeikandl.com